

وسيبويه وأسرته موال لبني الحارث بن كعب ، أو لآل الربيع بن زياد ، أو آل ولاؤه لآل الربيع بعد بني الحارث .

أما أمه فكانت فارسية كذلك بدليل أنها لقبت ابنها هذا اللقب الفارسي الصريح الذي عرف به في التاريخ ، وبدليل هجاء بشار له بأنه ابن الفارسية كما سيأتي ، وقد صار لقبه أشهر من اسمه وهو عمرو ، وكنيته وهي أبو بشر أو أبو الحسن ، ولا أريد أن أطيل في معنى هذا اللقب ، فيكاد مؤرخو العرب يجمعون على أن معناه رائحة التفاح ، ثم يعللون سبب هذا التلقب ، مدعين حيناً أنه كان جميلاً ذا وجنتين كالنفاح ، وحيناً أنه كان جميل الرائحة حتى إن من يقربه كان يشم منه رائحة التفاح ، وهذه تعليقات لا قيمة لها ولا داعي إليها ، لأن الأسماء لا تعطل - كما يقولون - ويقول المستشرق Huart في كتابه *La Littérature arabe* الأدب العربي إن هذه الصيغة قد يكون مدلولها التصغير في اللغة الفارسية ، فيكون معنى اللقب إذاً : التفاحة الصغيرة ، والرأى في ذلك للعلماء باللغة الفارسية . وسيبويه هو الطريقة التي ينطق بها هذا النوع من الأسماء المنتهية بويه كابن خالويه ونفطويه ، أما نطقه في لفته الأصلية فسيبويه بفتح الياء كما ضبطه ابن خلدكان وصاحب إعجام الأعلام ، وبكسرهما كما ضبطه إيوارت ، وقد تعب المستشرق الفرنسي دى ساسي في ضبط هذه الكلمة وبيان معناها في كتابه *An. Gra. Ara.* والمرجع أيضاً علماء اللغة الفارسية .

سيبويه إذاً فارسي صريح من ناحية أمه وناحية أبيه ، وربما كانت اللغة الفارسية تحيا نوعاً من الحياة في منزله ، وعلى لسان أمه وأبيه ، ولعله كان على علم قليل أو كثير بهذه اللغة ، وهذا ما لا أستطيع إثباته وإن كنت أستأنس له بهذا الفصل الذي عقده في كتابه للألفاظ المنقولة عن الإغريقية ، وإطراد الإبدال في حروف الكلمات الفارسية عند تعريبها لوجود حروف في الفارسية لا نظير لها في العربية .

كان كثير من حملة العلم ودراسي اللسان العربي في تلك العصور - من

الفرس . والمؤرخون يعللون ذلك بعلل كثيرة ، كان من جملتها ولا ريب تطلع الشبان ذوي المواهب إلى نيل المناصب السامية في دولة كانت تعتمد على سواعد الفرس ، ولقد كان هذا الباعث - بدون شك - واحداً من بين الأسباب التي حفزت سيبويه إلى دراسة اللغة العربية والتبحر فيها ، كما يدل على ذلك رحلته إلى بغداد فانها كانت رحلة يريد من ورائها المجد المادى والأدبى ، كما سنرى .

مولده :

لا سبيل إلى تحديد سنة ميلاده ، فقد أغفلها المؤرخون جميعا ، ولا يحص لنا من الفرض والتخمين للوصول إلى معرفة تلك السنة على وجه التقريب ، ذلك أن التاريخ يذكر من أساتذة سيبويه عيسى بن عمر الثقفى ، الذى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه توفى سنة تسع وأربعين ومائة ، ويقول ياقوت فى كتابه معجم الادباء : « وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل ، ولا يعقل حتى يكون بالغا ، فاذا حسبنا لبلوغ سيبويه سن الرشد أربعة عشر عاما ، كان لنا أن نضع ميلاد سيبويه فى العام الخامس والثلاثين بعد المائة ، ويكون عيسى بن عمر ، من أوائل الاساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه .

أين ولد هذا النابتة ؟ يجهل التاريخ كذلك مكان هذه الولادة ، فهو لا يعرف البلد الذى رآه للمرة الاولى ، ولا يكاد يذكره إلا وهو طالب طالمب للغلم ، يغدو إلى مجالسها فى مساجد البصرة ، وبعض المؤرخين يروى أنه ولد بالبيضاء التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان بأنها مدينة مشهورة بفارس ، وأنها أكبر مدينة فى كورة إصطخر ، وإنما سميت بالبيضاء لان لها قلعة تبين من بعد ويرى نياضها ، وكانت معسكرا للسليلين ، يقصدونها فى فتح إصطخر ، وهى مدينة تقارب إصطخر فى الكبر ، وهى تامة العمارة خصبة جداً ، ينتفع أهل شيراز بميرتها ، وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ ، وينسب إليها كثير من العلماء المبرزين ، عد ياقوت منهم جملة صالحة .

أرجح هذه الرواية ، واستأنس لهذا الترجيح بما سنراه بعد من أنه رحل

بعد إخفاقه في بغداد إلى فارس ، عائدا ، في أغلب الظن إلى مسقط رأسه ، فوافاه الأجل بها أو قبل أن يصل إليها في شيراز .

نشأته :

وإذا كان التاريخ يحجل بالتحديد منبته ، فهو يحجل كذلك نشأته الأولى ، ولا يعرف ماشداه الطفل من العلوم ، ولا ما أخذه من ألوان الثقافة ، وأغلب الظن أنه كان كنياته هذا العصر ، يقرءون القرآن ، ويحفظون شعر العرب وشيئا من السيرة النبوية وتاريخ الغزوات ، ثم يمضى من يريد التخصص في مادة فيما خصص نفسه له .

ويروى كثير من المؤرخين ، أن سيديويه لم يطلب النحو أول ما طلب ، بل كان يطلب الفقه والآثار ، أى الحديث وتاريخ الغزوات . قال نصر بن علي ، « كان سيديويه يستملى على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : « قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أصحاني إلا وقد أخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيديويه : « ليس أبو الدرداء » ، فقال له حماد : « لئمت ، ليس أبا الدرداء » ، فقال سيديويه : « لاجرم ، لأطلبن علما لا تلحنني فيه أبدا » . وطلب النحو ، ليس في هذه القصة شيء من الغرابة ، فقد بعن للبرء وهو يدرس ما يشعره بالنقص في ثقافته ، فيتجه لاستكمال هذا النقص ، وقد تظهر موهبته المسكونة في تلك المادة الجديدة ، فينبغ ويمتاز ، وبما لا ريب فيه عندى أن سيديويه لم يكنف بالنحو والفقه والآثار بل ضرب في كل علم من علوم عصره بسهم . قال ابن عائشة : « كنا نجلس مع سيديويه النحوى ، في المسجد ، وكان شابا ، نظيفا جميلا ، قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب في كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه وبراعته في النحو ، فبينما نحن ذات يوم إذ هبت ريح ، فأطارت الورق فقال لبعض أهل الحلقة ، انظر أى ريح هي ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس ، فنظر ثم عاد ، فقال : « ما ثبتت على حال » ، فقال سيديويه : « العرب تقول

في مثل هذا : قد تذاءبت الريح ، وتذاءبت ، أى فعلت فعل الذئب ، وذلك أنه يجيء من هاهنا وهاهنا ، ليخيل ، فيقوم الناظر أنه عدة ذئاب ، . وإذا صحت هذه الرواية ، وهى ليست بعيدة الصخة ، دللتنا على منهج سيبويه التعليمى ، واعتماده على التطبيق العملى فيما يلقيه من القواعد والنظريات ، وإن عليه باللغة يدلنا عليه كثير من فصول كتابه ولا سيما أبواب الصرف ففيها من غريب الكلمات ما يدلنا على محصول كبير فى اللغة :

أساتذته :

أما العلم الذى كرس له معظم وقته ، ونبغ فيه وشهر به ، فهو علم النحو وكتابه فيه أول كتاب وصل إلينا فى ذلك العلم ، ويحفظ التاريخ من أساتذته فى تلك المادة سيد أهل الأدب وصاحب العقلية الجبارة الخليل بن احمد ، وهو أعظم أساتذته أثراً فيه ، وأكثرهم اتصالاً به ، وأخذاً عنه ، وكان سيبويه يعد أربع تلاميذ الخليل فى النحو ، وأوثق من حمل عنه ، ومنهم عيسى بن عمر الثقفى ، مؤلف كتابى الاكمال والجامع فى النحو ، وهو الذى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء تلميذ يحيى بن يعمر حد تلامذة أبى الأسود ، ومنهم أبو زيد الانصارى تلميذ أبى عمرو بن العلاء أيضاً ، وقد عاش أبو زيد هذا بعد سيبويه بنيف وثلاثين سنة ورأى المجد الذى أذكره تلميذه بتأليف الكتاب ، وقد نقل عنه سيبويه فيمن نقل ، فكان الأستاذ يقول كالمفتخر بذلك : كان سيبويه غلاماً يأتى مجلسى وله ذؤابتان فاذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بصريته فانما يعنينى ، ومنهم يونس تلميذ ابن العلاء أيضاً ، وقد عاش كذلك بعد سيبويه . ويروى أنه لمامات سيبويه قيل ليونس بن حبيب : إن سيبويه قد ألف كتاباً فى ألف ورقة من علم الخليل ، قال يونس ، ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ ! جيئنى بكتابه ، فلما نظر فيه رأى كل ما حكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فى جميع ما حكاه عنه كما صدق فيما حكاه عني ويخيل إلى أن الصلة لم تكن وثيقته بين سيبويه وأستاذه

يونس كما نلس ذلك في تلك الرواية وفي رواية أخرى نقلها ياقوت . ومن أساتذته في اللغة أبو الخطاب الأخفش الكبير ، أستاذ أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وهو غير أبي الحسن الأخفش تلميذ سيديويه ، وإن كان أكبر من أستاذه منا ، وروى سيديويه اللغة أيضا عن أبي عمر بن العلاء كما ذكر ذلك ياقوت في معجم (ح ١١ ص ١٦٠) .

زملاؤه :

ويذكر التاريخ من زملائه ثلاثة نبغوا على يد الخليل بن أحمد : هم النضر ابن شميل ، وكان أربع تلاميذ الخليل في اللغة ، ومؤرج العجل وكان أربعم في الشعر واللغة ، وعلى بن نصر ، وكان أربعم في الحديث .

مدرسة البصرة ومدرسة السكوفة :

نشأ سيديويه بالبصرة ، وأخذ علم النحو عن أعظم علمائها قدرا ، ومعروف أن البصرة قد سبقت السكوفة في هذا اللون من الدراسة وانفردت به ، حتى أخذ هذا العلم عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي - أبو جعفر الرؤاسي ، وعنه وعن غيره من علماء البصرة أخذ السكسائي والفراء معاصرا سيديويه ، وقد بدأت مدرسة السكوفة في النحو منذ أنشأها الرؤاسي تناظر مدرسة البصرة . يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام (ح ٢ ص ٢٩٤) : بدأ الخلاف هادئا بين الرؤاسي في السكوفة والخليل في البصرة ، ويظهر أن العصية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصية السياسية التي ظهرت بين البلدين ، فقد كان السكوفيون يميلون في الجملة سياسيا إلى دولة بني العباس بينما كان البصريون منصرفين عنها ، (وقد ظهر في البصرة محمد بن الحسن العلوي الملقب بالنفس الذكية ، والذي حاربه المنصور ، وكان هو المرشح للخلافة قبل أن يأخذها العباسيون) .

أهم الفروق بين المدرستين

وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت

أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة في الرفع والنصب والجر والجزم وتحوها ، تلزمها وتريد أن تسير عليها في دقة وحزم ، وإذا كانت اللغات دائما لا تلزم القواعد العامة دائما ، بل فيها مسائل لا يمكن أن تجرى على القاعدة وخصوصا في اللغة العربية التي هي لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ... أراد البصريون ، تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فإذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ، ولا يقاس عليها ، بل جرموا على أكثر من ذلك نخطئوا بعض العرب في أقوالهم إذا لم يجر على القواعد فالبصريون إذا رأوا (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر غالبا ، ثم رأوها في بعض المواضع لا تسير هذا السير مع الوثوق بصحة ماورد نحو : (إن هذان الساحران) ألزموا الناس باتباع الأكثر الأغلب ، فهم قد فضلوا القياس وآمنوا بسلطانه وجروا عليه ، وأهدروا ما عداه ...

أما السكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، ويجوزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة ، قال السيوطي في بغية الوعاة : إن السكفائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك ...

فإذا أضفت إلى ذلك أن السكوفيين كانوا أكثر رواية للشعر ، وأن الشعر المصنوع لديهم أكثر من الشعر المصنوع عند البصريين أدركت مقدار الخلاف بين البصريين والسكوفيين في مسلكهم ...

ونرى في هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وأن طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة ، وأن السكوفيين أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ...

وكان البصريون أكثر اعتدادا بأنفسهم ، وأكثر شعورا بثقة مايروون ، وأشد ارتيابا فيما يرويه السكوفيون لذلك كان السكوفي يأخذ عن البصري ، ولكن البصري يتحرج عن أن يأخذ عن السكوفي . اه كلام الاستاذ أحمد أمين .

وسوف نرى أثر هذه النزعة التعليلية القياسية في كتاب سيويوه ، وسنرى أن اعتداد سيويوه بالقياس قد كان من الاسباب التي جعلته يخفق في رحلته إلى بغداد .

رحلته إلى بغداد

متى رحل سيويوه إلى بغداد ؟ ولم ؟ وفي مجلس من دارت المناظرة بينه وبين الكسائي ؟ وكيف أديرت ؟ وبم انتهت ؟ ولم انتهت كذلك ؟ وما الرأي في المسألة التي كانت موضع النزاع بينهما ؟ وما نتيجة إخفاق سيويوه ؟

أما أن سيويوه رحل إلى بغداد ، ودارت بينه وبين الكسائي مناظرة فذلك مالا سبيل إلى الشك فيه ، ولكن متى رحل إلى بغداد ؟ لم يحدد التاريخ هذه السنة ، وكل ما يذكره أن الرحلة كانت في عهد الرشيد ، وأنها كانت إلى يحيى بن خالد البرمكي ، ثم يذكر أن الرحلة قد تمت وليسيويوه من العمر نيف وثلاثون سنة ثم مات بعد هذه الرحلة بقليل . والبعض يذكر أنها تمت وليسيويوه نيف وثلاثون سنة ، ولكنه عاش بعدها نحو عشر سنوات ، ولا سبيل إلى استخلاص وجه الحق من هذه الأقوال المتضاربة ، والذي أرجحه — لأن أكثر المؤرخين عليه — أن سيويوه لم يعمر طويلا بعد هذه الرحلة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه مات — كما سأرجح ذلك فيما بعد — وعمره نيف وأربعون سنة ، كانت رحلته إلى بغداد بعد الأربعين من عمره حول سنة ١٧٩ هجرية .

أما الباعث على تلك الرحلة فالطموح إلى نيل المجد المادى والادبى ، فقد كان الكوفيون إلى ذلك الحين يستأثرون بعبات الخلفاء والقيام على تربية أولادهم ، فطمع سيويوه في أن يفتح باب الخلفاء والامراء للبصريين ، وأن يشارك الكوفيين حظهم ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها مؤمنا بتفوقه وقدرته على القلب والظفر فأراد أن يبرهن للامراء على أن البصريين يفوقون الكوفيين ويبنونهم ، فعمد إلى رئيسهم مؤمنا بأن انتصاره عليه انتصار

للبصرة على الكوفة ، ومن وراء هذا النصر يجلس هو على قمة المجد الأدنى ،
ويظفر بما يرغب من المال والثراء ؛ ورغبته فيهما واضحة ، حتى ليروى أنه
بعد أن أخفق في مناظرته قال السكسائي ليحيى : ولهجة الشimate والانتصار
بادية عليه ، بعد أن كان قلبه يرتجف عندما سمع برغبة سيويوه في الحضور
إلى بغداد - قال : « أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد إليك من بلده مؤملا فإن
رأيت ألا ترده خائبا ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . وشهرة البرامكة بالبذل
والعطاء هي التي - بلا ريب - جذبت اليهم سيويوه .

أما المناظرة فكانت في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، وعنده ولده
جعفر والفضل ، وأفضل الروايات في وصف هذه المناظرة ما ذكره ياقوت
في معجمه نقلا عن الاخفش والمبرد وثلعب ، قالوا : « قدم سيويوه إلى
العراق على يحيى بن خالد البرمكي ، فسأله عن خبره ، فقال : جئت اتجمع
بينى وبين السكسائي ، فقال : لا تفعل ، فانه شيخ مدينة السلام ، وقارئها ،
ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من في المصر له ومعه ، فأبى إلا أن يجمع
بينهما (ومن ذلك تبدو رغبة سيويوه في التحدى والغلب وثقته بنفسه) فعرف
الرشيد خبره ، فأمره بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم غدا
سيويوه وحده إلى دار الرشيد ، فوجد الفراء والاحمر وهشام بن معاوية
ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الاحمر عن مائة مسألة فأجابها عنها
بجواب إلا قال : أخطأت يا بصرى ، فوجم سيويوه وقال : هذا سوء أدب ؛
ووافى السكسائي وقد شق أمره عليه ، ومعه خلق كثير من العرب ، فلما
جلس قال له : يا بصرى (ومن هذه النسبة يظهر أن المناظرة لم تكن مناظرة
شخصية ، بل كان يلاحظ فيها أنها مناظرة بين البصرة والكوفة ، ولذلك
أهمل ذكر اسم سيويوه في مخاطبته ، واستبدل بيا بصرى) كيف تقول :
خرجت وإذا زيد قائم ، قال خرجت وإذا زيد قائم ، قال فيجوز أن تقول :
خرجت فإذا زيد قائما ، قال : لا ، قال السكسائي : فكيف تقول : قد كنت
أظن أن العقرب أشمد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، أو فإذا هو إياها ؟

فقال سيديويه : فإذا هو هي ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائي : لحت وخطأه الجميع . وقال الكسائي : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه ؛ ودفع سيديويه قوله ، فقال يحيى بن خالد : قد اختلفنا ، وأتينا رئيسا بلديكا ، فن يحكم بيننا : وهذا موضع مشكل ؟ فقال الكسائي : هذه العرب بيا بك ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت وأمر يا حضارهم ، فدخلوا ، وفيهم أبو فقحس ، وأبو دثار ، وأبو ثروان ، فسلوا عن المسائل التي جرت بينهما فتابعوا الكسائي .

هذه هي الرواية المعقولة للطريقة التي دارت بها المناظرة بين الكسائي وسيديويه ، وأغلب الظن أن الأعراب الذين استشهد بهم الكسائي ، قد نطقوا بتلك الجملة كما نطق ، وأغلب الظن أيضا أن بعض العرب ينطق بالجملة كذلك . وقد قال أصحاب سيديويه إن الأعراب الذين شهدوا للكسائي من أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم . أما تلك الرواية التي تزعم أن الأعراب اكتفوا بقولهم الحق ما قال الكسائي ، وهو كلام العرب ، ولم ينطقوا كما نطق الكسائي ، فغير معقولة ولا مقبولة ، فقد كان سيديويه يعلم أن العرب الخالص في ذلك الحين يسبق الصواب إلى ألسنتهم .

ولم يكن سيديويه من قلة الذكاء بدرجة أنه لا يطلب من الاعرابي أن يتكلم ، ويرجح الاستاذ أحمد أمين أن أصبح السياسة قد لعبت في هذه المسألة ، ويروي ابن خلكان ما يفهم منه أن المسألة كانت مدبرة ضد سيديويه البصري ، وكان الأمين تلميذ الكسائي من القائمين في هذا التدبير ، وأنهم أحضروا أعرابا ، مرنوا ألسنتهم على أن تنطق بما ينطق به الكسائي . فتم الأمر ويحكم للكوفة على البصرة ، وفي ذلك إذلال لها إنما إذلال . والذي أرجحه أن المسألة أبسط مما يتصور حتى مع فرض أن أصبح السياسة قد لعبت فيها ، ذلك أن الكسائي يعلم أن البصريين ، وعلى رأسهم سيديويه ،

لا يعتدون بغير القياس . ولا يقرّون ما يخالفه ، وإن ثبت سماعه ، ولا يجيزون القياس عليه ، وكان من اليسير على الكسائي أن يأتي بمسألة تخرج عن القياس ولا يعدم أن يجد قوماً يظفون كما يظفون ، ونحن نعلم أن بعض العرب قد شذ عن أشهر ما هو مألوف في اللغة ونظم الكلام .

والآن ، ما وجه الصواب في هذا الخلاف ؟ لاشك أن القياس هو ما قاله سيبويه ، وهو المتمشى مع المنطق فهو مبتدأ ، وهي خير . وهما ضمير رفع . وأما خرجت وإذا زيد قائم فيجوز في قائم الرفع والنصب ، وإنما جاز فيها الوجهان وامتنع في فإذا هو هي لأن قائماً تنصب على الحال وهو نكرة أما إياها فمعرفة لاتصلح أن تكون حالاً فيتعين أن تأتي بالضمير المعرفة خبراً .

حبسة لسانه

يرجع إخفاق سيبويه في هذه المناظرة فضلاً عن التحامل عليه ، وأنه لم يستصحب معه أنصاره ، ولا يؤمن بالقياس على الشاذ - إلى أنه لم يكن من الفصاحة بحيث يستطيع التأثير في سامعيه . ويكاد مؤرخو سيبويه يجمعون على أنه كان ألكن ، حدث أحمد بن معاوية قال ذكر سيبويه عند أبي فقال : عمرو بن عثمان ، قد رأيته ، وكان حدث السن ، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الحليل ، وقد سمعته يتكلم ، وينظر في النحو ، وكانت في لسانه حبسة ونظرت في كتابه فرأيت عليه أبلغ من لسانه وكانت هذه اللسنة سبباً قوياً في إخفاقه في المناظرات ، فانه لم يخف في مناظرته للكسائي فحسب ، ولكنه أخفق في مناظرة أخرى دارت بينه وبين الأصمعي ، وكان الحق فيها معه ، ولكنه هزم بسبب هذه اللسنة في لسانه : حدث أبو حاتم السجستاني قال : دخلت على الأصمعي في مرضه الذي مات فيه فسألته عن خبره ، ثم قلت له : في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه قال : « سل » فقلت : « حدثني بما جرى بينك وبين سيبويه من المناظرة » فقال : « والله لولا أني لا أرجو الحياة من مرضتي هذه ما حدثتك » إنه عرض على شيء من الآيات

التي وضعها سيديوه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسرته ، فبلغ ذلك سيديوه ، فبلغني أنه قال : لا ناظرته إلا في المسجد الجامع ، فصليت يوماً في الجامع ، ثم خرجت فتلقتني في المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذي أنكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟ فقلت له : ما فسرت إلا على ما يجب ، والذي فسرت أنه أنت ووضعت خطأ ، تسألي وأجيب ، ورفعت صوتي فسمع العامة فصاحت ، ونظروا إلى لكتته ، فقالوا : لو غلب الأصمعي سيديوه ، فسرتني ذلك ، فقال لي : إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده في وجهي ومضى . ثم قال الأصمعي : يا بني ، فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم . فأنت ترى أن لكتته سبب هزيمته .

ولقد كان لمناظرة سيديوه والكسائي أثرها في نفس كثير من العلماء كانوا يؤمنون بصدق سيديوه ، وخطأ الأعراب الذين أخذ عنهم الكسائي ، ومن هؤلاء العلماء يحيى بن المبارك اليزيدي الذي قال حينما سمع استشهاد الكسائي بأعراب الحطمية ، وهي قرية على فرسخ من بغداد منسوبة إلى السري بن الحطيم أحد القواد :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
بقاء أقوام يقيسونه على لغى أشباخ قطر بل

وقد علق المرحوم الأستاذ عبد الخالق على ذلك قائلاً : إن الفساد الذي ينسب إلى الكسائي ربما كان واقعاً ، فإن القرى التي يسكنها هؤلاء (الأعراب) كانت مرتعا للبطالين والخنارين ، وهي خليط من قوم لا يصح الاعتماد عليهم في اللغة ، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان مثل هذه الصفات ، هذا وإن أبا نواس قد شهن قطر بل الترية من بغداد بالخر والخنارين .

ومن هؤلاء الذين ثاروا لهزيمة أستاذهم الأخفش الأوسط راوي كتاب سيديوه ، قال : لما ناظر سيديوه الكسائي ورجع ، وجه إلى فعر في خبره معه ومضى إلى الأهواز ، فوردت بغداد ، فرأيت مسجد الكسائي ، فصليت

خلفه الغداة ، فلما انقفل من صلاته وقعد ، وبين يديه القراء والآخر وابن سعدان سلبت ، وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها ، فأراد أصحابه الوثوب على فئتهم ، ولم يقطعني مارأيتهم عليه عما كنت فيه ، فلما فرغت قال لي : بالله ، أما أنت أبو الحسن سعيد ابن مسعدة ؟ قلت : نعم فقام إلى وعانقني ، وأجلسني إلى جنبه ، ثم قال : لي أولاد أحب أن يتأدبوا بك ، ويتخرجوا عليك ، وتكون معي غير مفارق لي فأجبتهم إلى ذلك ، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع ... قرأ على كتاب سيديويه سرأ ووهب لي سبعين ديناراً ، وهكذا استطاع الكسائي - ويظهر لي أنه كان دمية - أن يلقى الأخفش عن قصده ، وليس عليه في ذلك من بأس بعد هزيمة رأس البصريين .

كان سيديويه يؤمل كبار الآمال على هذه الرحلة ، ويرجو أن ينصر البصرة على الكوفة ، وأن ينال المسكنة التي يجد نفسه جديراً بها ، فما هو إلا أن وجد آماله تنهار أمام عينيه .

باتصار الكسائي عليه ، انتصاراً يعده سيديويه مختلساً فازمع الرحلة عن بغداد إلى أين يتجه ؟ إلى البصرة ، وقد حبط فيما كان يبنه لها من المجد ؟ أم إلى الكوفة ؟ وهو أعظم منافس لأسانذتها فضلاً عن أنه لا يثق بعلمائها ، ويرى أن ما يستنبطون منه قواعدهم النحوية مكذوب مختلق ، أم يبقى في بغداد التي شهدت أمله تنهار ؟ لا سبيل إلى شيء من ذلك ، فازمع الرحلة إلى وطنه يقيم فيه عليه يجد برد الراحة فيستريح . أزمع سيديويه الرحلة ، ولكنها رحلة المنطوى على الضغن ، رحلة الذي لا ينسى أن له حقاً في الحياة والمجد فحبل بينه وبين ما يشتهي

وفاته :

ويظهر أن الصدمة كانت شديدة عليه ، فلم يحتملها ولم يلبث أن مات غماً بالذرب ، وهو فساد المعدة ، وأعجله الموت فلم يصل إلى بلده البيضاء بل وافاه الأجل في شيراز أو بساوة بالقرب منها سنة ١٨٠ هجرية . وما يدل

على أثر الصدمة في نفس سيديويه أنه كان يتمثل عند موته قائلا :

يؤمل دينيما لتبقي له فمات المؤمل قبل الأمل

روى الأصمعي أن سيديويه مدفون بشيراز ، وأنه قرأ على قبره هذه الآيات ، وهي لسليمان بن يزيد العدوي :

ذهب الأحبة بعد طول تراور ونأى المزار فأسلوك فواقشعوا
تركوك أوحش ماتكون بقفرة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصعدوا
وذلك هو ما أرجحه من تلك الروايات التي نجدها في الكتب التي
أرخت لسيديويه ، فإن نافع وحده يذكر أنه مات بالبصرة سنة
إحدى وستين ومائتين ، وهو قول لم يؤيده فيه أحد ، وغير معقول أيضا ،
لأن سنة حينئذ لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين بكثير ، وهو ما لم يقله
مؤرخ ، ويروى ابن خلكان غير مثبت أنه وصل إلى البيضاء ومات فيها ،
ويروى ابن النديم أنه عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس ، وعودته إلى
البصرة مشكوك فيها بعد هذا الاختفاق .

وتحديدنا سنة وفاته بمائة وثمانين تحديد ترجيحي كذلك ، وحسي أن
أذكر أن بعض الرواة يضعها سنة إحدى وستين ومائة ، وابن الجوزي
يضعها سنة أربع وتسعين ومائة والفرق بين التاريخين ثلاث وثلاثون سنة ،
أما سبب ترجيحنا فإن أكثر الرواة عليه ، ويرجح ابن الأنباري بدليل
أنه مات قبل الكسائي والكسائي مات سنة ثلاث وستين ومائة .

كانت سن سيديويه عندما توفي يزيد على الأربعين ، وعلى حسب ما حددناه
تكون سنة زهاء خمس وأربعين سنة ، وهو المعقول بموازنة التواريخ ، فليس
بمعقول إذا أن نقبل قول الأستاذ أحمد أمين الذي يضع تاريخ وفاته في
الثمانين بعد المائة ، ثم يقول : إنه مات ، وعمره نيف وثلاثون سنة ، لأننا
قلنا إنه أخذ عن عيسى بن عمر الذي توفي سنة تسع وأربعين ومائة ، فيكون
سيديويه حينئذ في المهد صيا .

أخلاقه ومواهبه :

كان سيدويه ذكياً ، متوقد الذكاء ، ذا عقل منطقي موزن يحسن التفريع والتعليل ! وكتابه خير دليل على ذلك . ثم هو طموح لم يرض بحظه في البصرة وأنه أصبح شيخها ، بل أبى إلا أن يكون وحيد دهره لاعلم فوقه في العالم الاسلامي ، وإلى جانب طموحه كان واثقاً بنفسه تمام الثقة يؤمن بقدرته في النحو قدرة فائقة . عن أبي عثمان المازني ، قال حدثني الاخفش قال : حضرت مجلس الخليل ، فجاء سيدويه ، فسأله عن مسألة ، وفسرها له الخليل فلم أفهم ما قال ، فقممت وجلست له في الطريق ، فقلت له : جعلني الله فداك ، سألت الخليل عن مسألة فلم أفهم ما رد عليك ، ففهمني ، فأخبرني بها ، فلم تقع لي ولا فهمتها ، فقلت له : لا تتوهم أني أسألك إعناتاً ، فاني لم أفهمها ولم تقع لي ، فقال له : ويحك ، ومتى توهمت أني أتوهم أنك تعنتي ، ثم زجرني وتركني ومضى ، وذهابه إلى بغداد وطلبه مناظرة الكسائي ، تدلنا على هذا الخلق الثابت في نفسه ، ولسكنه لم يكن مع ثقته بنفسه ، وطموحه من هؤلاء المتعجرفين الذين يمل عشرتهم ويكره قريتهم ، بل كان محبباً إلى نفس سامعيه ومجالسيه ، والروايات كثيرة تدل على ظرفه وكياسته حدث ابن النطاح قال : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيدويه ، فقال الخليل مرحباً بزائر لا يمل . قال : وكان كثير المجالسة للخليل وما سمعت للخليل يقولها لغيره .

وكان إلى جانب ذلك - على ما يظهر له - مفرط اليأس إذا ينس ، فلم يستطع أن يقاوم الصدمة التي منى بها عندما أخفق في رحلته إلى بغداد ، ولعله أراد أن يحارب اليأس الذي جل به ، فقليل إنه سأل عن أمير له في النحو أرب ، وخرج يريد بني طاهر في خراسان - كما يروي - ولكن الآلم الذي حز في نفسه لم يفارقه حتى مات .

هذا وقد تحدثنا عن لسكنته فيما مضى وبيننا أثرها في إخفاقه في

المناظرات .

أسرته :

أزواج سيويه ، وكون بيتا ؟ أم وهب نفسه للعلم وكرس حياته له ؟ لا يروى التاريخ شيئا يتعلق بذلك ، وأغلب الظن أن سيويه عاش حياته كلها للعلم والتعليم ، ونستأنس لذلك بأن الروايات التي تتحدث عن وفاته ، وتصف لحظاته الأخيرة ، لا تتحدث عن زوجة ولا ولد ، وكل ما يذكره التاريخ له من الأقارب أخ ، يظهر أن الحب والمودة كانت تربطهما أوثق رباط ، ولعل سيويه لم يكن له أخ سواه . قالوا : ولما اعتل سيويه وضع رأسه في حجر أخيه فبكى أخوه لما رآه لما به ، فقطرت من عينه قطرة على وجه سيويه ، ففتح عينه فرآه يبكي فقال .

أخين كنا فوق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا لم يترك سيويه ذرية من بعده ، ولكنه ترك ذكرا خلدا ، واسما سوف يبقى ما بقيت اللغة العربية . وما بقى دارس لهذه اللغة ، ولقد نال سيويه في حياته من الشهرة وديوع الصوت ما لم ينله قبله إلا أستاذه العظيم ، الخليل ابن أحمد ، بل لقد صار اسمه يذكر بجانب أستاذه كلما تحدث الناس عن أعظم علماء النحو ، ولم تقف شهرته عند العلماء ، بل لقد كان مشهورا كذلك بين جمهور الشعب يتأثرونه ويقلدونه ، حدث التاريخ عن المبرد عن الزواري أبي زيد قال . قال رجل لسماك بالبصرة . بكم هذه السمكة ؟ قال بدرهمان ، فضحك الرجل ؛ فقال السماك . ويلاك ، أنت أحمق ، سمعت سيويه يقول ، ثمنا درهمان .

تلامذته :

ترك سيويه من بعده تلاميذه ، وكان من أشهرهم أبو الحسن الأخفش الأوسط والناسي ، وأبو علي قطرب ، وترك كتابه العظيم الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

من أرخ لسيويه

لم يدرس سيويه إلى اليوم الدراسة التفصيلية التي يستحقها إمام ألف

أول كتاب وصل إلينا في قواعد اللغة . وأقدم ترجمة اهدت إليها لسليويه في كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وستين للهجرة ، وهي ترجمة موجزة تحدث فيها عن اسمه وبعض أساتذته وزملائه وتلامذته وكتابه ولم يتحدث بالزمن سنى حياته ووفاته ولا مكان موته . وفي كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ خمس وثمانين وثلاثمائة ترجمة موجزة كذلك ، وتحدث فيها عما تقدم ، وأضاف إليه خبر رحلته إلى بغداد وحدد سنة وفاته .

كنا نطمع من هذين العالمين أن يشفيا غليلنا من سيويه لقرب عهدهما به ولكن منجهما في التأليف وخطهما التي اتبعها في الإيجاز حرمتنا من معارف كثيرة كانا نستطيعان أن يقدماهما إلينا .

وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية ، ترجمة لسليويه ، نهج فيها المؤلف منهجه في ذكر الروايات المختلفة بأسانيدھا وفي هذه الترجمة بعض الطول وهي تحوى روايات متعارضة عن مصادر مختلفة .

وفي القرن السادس للهجرة كتب صاحب نزهة الألباء المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو كوفي يتعصب للسكوفيين - فصلا يشبه إلى حد كبير فصل الخطيب البغدادي ، ولم يبين وجه الصواب في الخلاف بين سيويه والسكسائي ، ولكنه لم يستطع أن ينكر مواهب سيويه ولا فضل كتابه . أما صاحب معجم الأدباء المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فقد عقد لسليويه فصلا مطولا ، هو أطول ما كتب عن سيويه إلى ذلك الحين ، وفيه عيوب التأليف في تلك العصور فلا ترتيب ولا تبويب ، ولكنها روايات تجمع ، ينتقل فيها من موضوع إلى غيره بلا صلة ولا رباط ، وإن كانت له تحقیقات نافعة في كثير من الأحيان ، كتحقیق من سيويه عند وفاته كما تناول الحديث عن سيويه في مواضع شتى وفي هذا الكتاب نقل لرواية لم يحصها وتركها كما رواها قال . نقلت من خط أبي سعد السمعاني ، مما انتخبه من طبقات أهل فارس وشيراز ، تأليف الجاحظ

أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز الشيرازى القصار . بشير بن سعيد ، وقيل عمرو بن عثمان بن قنبر ، يكنى أبا بشر سيديوه النحوى ، (أخذ) عن الخليل بن أحمد ، وهو من الحارث بن كعب ، مات وكان على مظالم فارس ، وقبره فى شيراز ، لم يزد فى ترجمته على هذا . وأقول أنا بدورى . إن ياقوت لم يزد عن أن نقل هذه الترجمة ولم يحصها ، فهل ولى سيديوه مظالم فارس ؟ أستبعد ذلك ، إذ لم يرو غيره من المؤرخين نبا كهذا ، والمترجم يخطئ حتى فى اسم سيديوه مما يجعل هذه الترجمة تافهة قليلة القيمة .

عن هذه الكتب الخمسة أخذ ابن خلكان الذى توفى سنة ٦٨١ هـ ، وقد عقد له فصلا موجزا ليس فيه من جديد سوى ضبط اسم سيديوه فى العربية والفارسية ، وأخذ السيوطى أيضا المتوفى سنة ٩١١ هـ فى كتابه بغية الرعاة ، وأخذ المحدثون من أمثال جورجى زيدان والرافعى والاسكندرى .

والاستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام قد تناول بالحديث نشأة النحو والتأليف فيه ومدرسة البصرة والكوفة ، وتحدث حديثاً بجملا عن كتابه سيديوه وذكر أن دراسة الكتاب وتحليله يحتاجان إلى فصل مطول .

وقد عرف المستشرقون سيديوه وكتب عنه وعن مدرستى البصرة والكوفة وعن تلاميذه وأساتذته المستشرق Huart فى كتابه La Littérature arabe الأدب العربى وتحدث عنه وعن كتابه وحقق اسمه ، وترجم بعض فصول كتابه إلى الفرنسية المستشرق المعروف Silvestre De Sacy فى كتابه Anthologie Grammaticale arabe مختارات من قواعد اللغة العربية وذكر الاستاذ جورجى زيدان فى كتابه أن المستشرق ديرنبورج طبع كتاب سيديوه فى مجلدين كبيرين فى ١٠٠٠ صفحة كبيرة ، عليها تعليقات مفيدة ومقدمة باللغة الفرنسية عن مسودات هذا الكتاب ومظاهها وما قيل فيها ، وقد نقله

إلى الألمانية الدكتور ياهن وطبع في برلين ، والآن يجدر بنا أن نزن كتاب سليويه وأن ندرسه ونحلله لنعرف قيمته الحقيقية .

ب - كتاب سليويه

موقف الأقدمين منه

قال الجاحظ . أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، ففكرت في شيء أهديه له ، فلم أجد شيئاً؛ أشرف من كتاب سليويه ، وقلت له أردت أن أهدي لك شيئاً ، ففكرت ، فاذا كل شيء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء ، قال . والله ما أهديت إلى شيئاً أحب إلى منه .

وذكر صاعد بن أحمد الجبائي من أهل الأندلس في كتابه قال . لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديماً وحديثاً فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب . أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسطاطاليس في علم المنطق ، والثالث كتاب سليويه البصري النحوي ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له .

وقال السيرافي . كان كتاب سليويه لشهرته وفضله علماً عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سليويه وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سليويه . وكان محمد بن يزيد المبرد إذا أراد مرید أن يقرأ عليه كتاب سليويه يقول له . هل ركبت البحر تعظيماً له واستصعاباً لما فيه .

وكان المازني يقول من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سليويه فليستح .

وقال الرخشي في هذا الكتاب .

ألا صلى الله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر
تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سيبويه نظرة التقدير والتعظيم ،
ولم يقتصر اجلال الكتاب على المعجبين بسيبويه بل كان خصومه في تقديره
والانتفاع به كالحبين . حدث الأخفش - كما سبق أن رويناه - أنه قرأ
كتاب سيبويه على السكسائي في جمعه ، فوهب له سبعين ديناراً ، قال . وكان
السكسائي يقول له . هذا الحرف لم أسمعته فاكسبه لي فافعل .

قيل ، فكان الجاحظ سمع هذا الخبر ، فقال بما يعدده من نثر أهل
البصرة على أهل الكوفة : وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان ، وبسبويه الذي
اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله ؟

وحدث أبو الطيب اللغوي عن أبي عمر الزاهد قال . قال ثعلب يوماً في
مجلسه . مات الفراء (وهو كوفي كما نعلم) . وتحت رأسه كتاب سيبويه .
والآن لكي نستكمل البحث نرى أن ندرس النقط الآتية .

- ١ - متى ألف سيبويه كتابه ؟ ٢ - متى ظهر الكتاب للجمهور ؟
- ٣ - من روى هذا الكتاب ؟ ٤ - ثم ندرس خطة المؤلف وأسلوب عرضه
- ٥ - ونبحث بعد ذلك مصادر الكتاب ، وشخصية المؤلف ، وأثر الكتاب
في دراسة النحو ، وآراء منتقديه ، ٦ - ونختم البحث برأينا في الكتاب .

متى ألف سيبويه كتابه ؟

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول كل الجهل ، ولم تذكر كتب التاريخ
أن الكتاب ظهر في حياة مؤلفه ، فالسيرافي والمؤرخون من بعده قدذكروا
أن الكتاب لم يظهر في حياة سيبويه ، ولكنه ظهر بعد وفاته ، والذي نقله
عنه ورواه للجمهور تليذه الأخفش ، قال السيرافي : والطريق إلى كتاب
سبويه الأخفش ، وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ،
ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكنه لما مات سيبويه قرأه الكتاب على أبي الحسن
الأخفش ، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر والجزمي ، وأبو عثمان المازني . وقال

ياقوت في معجمه : وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كل الاستحسان ، فتوهم الجرمي والمازني أن الأخفش قد هم أن يدعي الكتاب لنفسه ، فتشاورا في منع الأخفش من ادعائه ، فقالا : نقرؤه عليه ، فإذا قرأناه عليه أظهرناه ، وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه ، فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئا من المال على أن يقرأه عليه ، فأجاب ، وشرعا في القراءة ، وأخذوا الكتاب عنه ، وأظهراه للناس .

وتلك قصة تدل على أن الأخفش هو الراوي الوحيد لكتاب سيبويه ، ويفهم منها أن كثيرا من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه للكتاب ، بل أرجح أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفا للجمهور ، وكذلك بعض ما استشهد به سيبويه من الشعر بدليل ما ذكرناه من أن الأصمعي وجه هذا الشعر توجيها غير توجيحه سيبويه ، واضطر سيبويه إلى مناظرته كما ذكرنا ، وإذا فالذي كان مجحولا هو الكتاب كاملا ، أما بعضه فكان معروفا عند الجمهور ، ولو أن أمر الكتاب كان مجحولا بالكلية ، ولم يكن يعلم أحد أن سيبويه قد ألف كتابا كان من الميسور الشك في نسبته إلى مؤلفه من ناحية ، وهو ما لم يروه مؤرخ ، بل الإجماع منعقد على أن هذا الكتاب لسيبويه ، ومن ناحية أخرى كان من الميسور على الأخفش أن يستلحق الكتاب وينسبه إلى نفسه ، وهو ما لم يستطع أن يفعله .

غير أن عدم ظهور الكتاب كاملا طول حياة المؤلف يجعل من حقنا أن نستبسط منه أن سيبويه ظل إلى آخر أيام حياته راجع مؤلفه ، يزيد فيه وينقص ويقدم ويؤخر ، غير راض أن يظهره للجمهور إلا بعد أن يكون قد أرضى نفسه عنه ، فعاجلته المنية قبل أن يوفي على هذه الغاية ، ويؤيد هذا الاستنباط أيضا أن الكتاب خال من مقدمة يضعها المؤلف في رأس كتابه ليقدم بها الكتاب للجمهور ويذكر فيها غرضه وخطته ، وخال من خاتمة تنبيه بائنه المؤلف من فكرته بل إن المؤلف لم يضع لكتابه اسما يميزه كما

هو المؤلف ، مما يدل على أن سيويه قد مات من غير أن يضع الكتاب في ثوبه النهائي .

والذى يلوح له أن سيويه قد استغرق في تأليف كتابه وقتاً طويلاً ، وأنه قد بدأ في وقت مبكر ، فكان يقيد ما يسمعه من أساتذته وما يراه فيما ألف قبله من الكتب ، ويجمع المتفرق ويؤلف من المتناثر مجموعاً كاملاً ، وربما كان يعرض ما يكتبه على الأخفش الذى كان تلميذه وفي الوقت نفسه أخذ النجوع من أخذ سيويه عنهم . وهنا نستبعد على رجل مثل الأخفش في علمه ، وفي ثقة أستاذه به أن ينسب الكتاب إلى نفسه ، ولكنه وهم سبق إلى الجرمي والمازني .

ويظهر لى أن الكتاب قد ظهر للجمهور بعد موت سيويه بقليل ، فان يونس بن حبيب قد راجع الكتاب ، وأقر بصدق ما رواه سيويه عنه ، كما سبق أن ذكرنا ، ويونس قد مات بعد عامين من وفاة تلميذه . كما أن الكسائي الذى توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة قرأ الكتاب على الأخفش سرا ، كما روى الأخفش .

هذا ويروى الأستاذ Huart أن الأخفش قد عارض أستاذه في بعض آرائه ، ولكنى لم أعثر فيما بين يدي من كتب على هذه الاعتراضات .
خطة المؤلف :

الكتاب سيويه وحيدة وغرض معين ، لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية ، وهنا يحسن أن نشير إلى أن كتاب سيويه لا يقتصر على ذكر قواعد النحو ونحسب ، بل شمل قواعد الصرف أيضاً ففيه أبواب لأوزان الكلمة ، وأنواع الاشتقاق المختلفة والثنية والجمع والإعلال والإبدال ، والتصغير والنسب وغير ذلك من أبواب التصريف .

والكتاب مقسم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة ، كل باب منها يعالج ناحية من نواحي القواعد ، وليس في الكتاب مقدمة كما ذكرنا ، بل أوله في صميم الموضوع إذ يتحدث عن أقسام الكلمة ، فيقول . هذا باب علم ما الحكم من

من العربية ، والكتاب جزءان . يحتوى الجزء الأول منهما عن النكلم وأقسامه ، والفاعل ، والمفعول ، وما يعمل عمل الفعل ، وإعمال المصدر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة والحال والنظر والجور ، والتوابع ، والمعرفة والنكرة ، والمبتدأ والخبر ، والأسماء التى بمنزلة الفعل ، والأحرف المشبهة به ، والنداء ، والترخيم ، والنفي بلا ، والاستثناء ، وباب لكل من أحرف الجر ، وفى الجزء الثانى ما ينصرف وما لا ينصرف ، والنسب والتصغير والمقصور والممازود ، والجمع ، والوقف ، والإعلال والإبدال ووزن الكلمات ولكن ترتيب الكتاب يخالف النهج الذى تتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخرون فيما يأتى .

أولاً . ترتيب أبواب الكتاب يخالف ما عهدناه من الترتيب فيما تتداوله من الكتب التى بين أيدينا ، فلا يأتى بالمرفوعات كلها على حدة ثم المنصوبات والمجرورات مثلاً ، بل بعضها ممزوج ببعض كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب فينتقل من الفاعل إلى المفعول ثم بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر ، وهكذا .

ثانياً . لا يسير فى ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة فيقدم أبواباً من حقها أن تتأخر ويؤخر أبواباً من حقها أن تقدم ، ويضع فصولاً فى غير موضعها الطبيعى ، فهو يتحدث عن المسند اليه والمسند وكان من اللائق أن يستوفى أبواب المسند اليه من مبتدأ وفاعل وغيرهما ثم يعود إلى المسند ليستوفى أنواعه وأحكامه ولكنه لم يتبع ذلك ، وكثيراً ما تقول - وأنت تقرأ الكتاب - ليت ذلك الباب وضع هنا ، أوليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك .

ثالثاً . يذكر سبويه الباب العام ، ثم يعقد لكل مسألة من مسائله تقريباً باباً خاصاً يعالجها ، فهو يعنون - مثلاً - للتصغير ، ويذكر صيغه المختلفة ، ثم يعقد أبواباً للمسائل الجزئية فيه ، فتجد باباً لتصغير ما يكون على خمسة أحرف ، وآخر لتصغير المضاعف ، وباباً لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف

ولحقته الزيادة للتأنيث ، وأبواباً أخرى لفروع التصغير المختلفة .

رابعاً . يذكر مسائل في أبواب نضعها نحن تحت عنايات أخرى ، فمثلاً هو يعد في أبواب الفاعل باباً للفاعل الذى لم يتعد فعله إلى مفعول ، وباباً آخر للفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول ، وباباً ثالثاً للفعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدى واللازم . خامساً . لا يذكر دائماً مسائل الباب الواحد سلسلة متصلة متتابعة ، بل يذكر بعضها في موضع وبعضها الآخر في موضع ثان ، بعد أن يفصل بينهما في كثير من الأحيان بأبواب أخرى ، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها . سادساً . أن الاصطلاحات النحوية لم تسكن قد استقرت بعد ، ومن أجل ذلك نجد يضع عناوين طويلة لأبواب ، وغالباً ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا ، فترى نفسك مضطراً إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها ، وقلنا تجد عناونا مفهوما لك في هذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه وضع لإن وأخواتها هذا العنوان . هذا باب الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده ، وهى من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التى بمنزلة الفعل ولا تصرف تصرف الأفعال كما أن عشرين لا تصرف تصرف الأسماء التى أخذت من الفعل وكانت بمنزلة ، ولكن يقال بمنزلة الأسماء التى أخذت من الأفعال وشبهت بها فى هذا الموضع ، فنصبت درهما لانه ليس من نعتها ولا هى مضافة إليه ، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حمل العشرون عليه ، ولكنك واحد بين به العدد فصلمت فيه كعمل الضارب فى زيد إذا قلت هذا ضارب زيداً ، لان زيدا ليس من صفة الضارب ولا محمولا على ما حمل عليه الضارب ، وكذلك هذه الحروف منزلتها من الأفعال ، وبعد ذلك كله يقول . وهى إن واسكن وليت ولعل وكأن . ويضع عناونا لباب كان وأخواتها قوله . هذا باب الفاعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه شيء واحد .

ويضع عنوانا للمفعول لاجله قوله . هذا باب ما ينتصب من المصادر
لأنه عذر .

ويدلنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت أنه لم يضع
الاسماء الاشارة اسما ، بل دعاها الاسماء المهمة ، كما كان يدعو التسمكين جزما
فيقول وجزمت لدنه ، ويسمى المقصور منقوصا ، وغير ذلك كثير .

سابعاً . يذكر القاعدة وأمثلتها ، ويمزج ذلك بالتعليقات المنطقية ، ويبان
وجه القياس فيما يذكره من القواعد ، وعرض الآراء المختلفة في الموضوع الواحد .
ثامناً . يقرض فروضا يضع لها أحكاما فيقول مثلاً (ص ٣ / ٢) ولو
جاء في الكلام شيء نحو أكل وأيقق فسميت به رجلاً صرفته لأنه لو كان
أفعل لم يكن الحرف الاول إلا ساكناً مدغماً .

تاسعاً . لم تكن الابواب قد تميز بعضها من بعض التميز الكافي ، ويدلنا
على ذلك باب التمييز وباب التعجب مما لم يتحدد معالمه . التجدد الواضح في
كتاب سيبويه .

دراسة باب من أبواب الكتاب

ولعل من الخير أن ندرس باباً من أبواب الكتاب لنرى في صورة أوضح
منهج الكتاب في التأليف وطريقته في تناول مسائل النحو ، ولنأخذ باب
الحال لنرى الفرق بين تناول سيبويه له وتناول المحدثين .

لم يضع سيبويه عنواناً للحال ثم يذكر أحكامه المختلفة كما نرى ذلك
مثلاً عندما نأخذ كتاباً كالنوضح ، بل ذكر أحكام الحال موزعة في نواح
شتى ، وأول ما ذكر باب الحال في كتاب سيبويه كان بين أبواب المفعول
وعنون له سيبويه بقوله ، هذا باب ما يعمل فيه العمل ، فينتصب وهو حال
وقع فيه الفعل وليس بمفعول . وفي هذا الفصل أوضح سيبويه لم لا يجوز أن
يعرب الحال مفعولاً . وبعد أبواب عدة تحدث فيها سيبويه عن كأن وأخواتها وظن
وأخواتها والتنازع والاستغال وإعمال اسم الفاعل والمصدر والصفة المشبهة ،
والمفعول المطلق وشيء من التمييز والتحذير والمفعول معه ، وعاد إلى المفعول

المطلق عرض بين أبوابه بابين من أبواب الحال ، عنون لأحدهما بقوله .
 هذا باب ما ينتصب من الأسماء انتصاب الفعل استفهمت أو لم تستفهم :
 وذكر تحت هذا العنوان حكم الحال عندما يكون عامله محذوفاً ، وذلك مثل
 قولك ، أقامنا وقد قد الناس ، وقدر سيبويه أن العامل فيه فعل من لفظه
 كأنه يقول : أتقوم قائماً ، قال السيرافي . وأنكره بعض الناس لأن لفظ
 الفعل لا يكاد يعمل في اسم الفاعل الذي من لفظه ، قال المبرد . والقول عندى
 ما قاله سيبويه ، لأنه قد تكون الحال توكيداً كما يكون المصدر توكيداً .
 وعنون للباب الثانى بقوله ، وهذا باب ما جرى من الأسماء التى لم تؤخذ من
 الفعل بجرى الأسماء التى أخذت من الفعل ، وذكر فى هذا الباب ما يكون
 عامل الحال فيه محذوفاً وليس من لفظه وذلك مثل قولك : أتممها مرة وقيسياً
 أخرى ، أى أتدعى أو أتتحوّل وإنما ذكر هذين البابين بين أبواب المفعول
 المطلق لمشابهتهما له فى أن عامله أحياناً يكون محذوفاً كقول جرير : ألوما
 لا أبالك واعتراباً ، أى أتلوم لوماً وتغترب اعتراباً ثم عاد بعد ذلك إلى
 المفعول المطلق فى أبواب كثيرة ، وانتقل إلى المفعول لأجله ، ثم عاد إلى
 باب الحال ، فذكر فى أبواب شتى المصادر التى تعرب حالاً سواء كانت نكرة
 أو معرفة ، والأسماء التى تعرب كالمصادر أحوالاً مع أنها معرفة . وذكر
 هذه الفصول من الحال فى هذا الموضع لأن الحال مصدر أو كالمصدر . وبعد
 أن ذكر باباً آخر فى المفعول المطلق عقد باباً فيه مسائل مشتركة بين الحال
 والمفعول ، ثم عاد بعد فصل آخر ليس من باب الحال إلى ذكر أبواب
 للحال الذى يقع جامداً ، مما يدل على مقابلة ككلمته فاه إلى فى أو سعر ،
 والحال الذى يقع معرفته ، ثم انتقل إلى ظرف الزمان والمكان وباب الجر ،
 وباب النعت والعطف والبذل ثم عاد إلى باب الحال عندما يكون العامل فيه
 الابتداء مثل قولك : ما شأنك قائماً ، وترك ذلك إلى النعت المقطوع وأطال
 فيه ، ثم عاد إلى باب الحال فذكر فصلاً عندما يكون صاحبها خبر الاسم
 إشارة أو ضمير ، وفصلاً آخر عندما يكون صاحبها معرفة ونسكرة مثل

قولك : هذان رجلان وعبد الله منطلقين ، وبابا لما يصح أن يعرب حالا أو خبراً مثل هذا الرجل منطلق أو منطلقاً ، وبابا لما يعرب حالا وكان في الأصل خبراً مثل : فيها عبد الله قائماً ، ثم ذكر شيئاً من باب المعرفة والنكرة وعاد إلى أبواب أخرى من أبواب الحال . هذا إلى مسائل متناثرة منه هنا وهناك تذكر في أبواب أخرى لمناسبة بينها وبين هذه الأبواب .

هذه صورة لباب من الأبواب التي تناولها الكتاب ، ذكرت مسائله موزعة في أما كن شتى ، تبعاً للنسب التي تستدعيها ، ولكن من الواجب أن أشير إلى أنه ليس كل الأبواب في الكتاب كباب الحال ، بل بعضها أفضل منه حظاً فذكرت مسائلها متقاربة نوعاً من التقارب ، كما كان بعضها أسوأ منه حظاً ، فعرضت مبعثرة متناثرة .

وعذر سيوييه في ذلك كله أمران ، أولهما أن ترتيب أبواب النحو الترتيب النهائي لم يكن قد تم بعد ، وثانيهما مارجهناه من أن سيوييه لم يضع كتابه في وضعه النهائي كما أسلفنا .

أسلوب الكتاب :

كتاب سيوييه كتاب موضوع للعلماء ، وهو من أجل ذلك موجز ، كل كلمة فيه موضوعة لمعنى ، فهو يشبه مع ضخامته - متناً من المتون ، ومن أجل ذلك وضع عليه العلماء كثيراً من الشروح ، وقد يستغرب أن أقول : إنه مع الإيجاز يلتزم جانب التفصيل والتوضيح لما يتناوله حتى يستوفيه ، ولكل لاجل للغربة إذا ذكرنا أنه مع التفصيل يلتزم جانب الإيجاز أيضاً والذي ساعده على التفصيل تجزئة الموضوع إلى أبواب كثيرة يستوفى في كل باب منها مسألة يذكر قاعدتها وأمثلتها ويفرعا ويفرض فروضا يضع لها أحكاماً ، ويذكر فيها الآراء المختلفة .

وهذا الإيجاز الذي تحدثت عنه يسبب في أحيان كثيرة غموضاً وإبهاماً

والتواء مما يحتاج إلى إعمال الروية والثأني في فهم غرض المؤلف ، ولست أرى إلى أن الكتاب غامض غير مفهوم بل أريد أن أثبت أن الغموض واقع في بعض الفصول ، ولكنه في الأغلب واضح ، غير أنك لا تستطيع مع ذلك أن تقرأه إلا وأنت متربث على سهل ، وأسلوب الكتاب يرمى إلى التفهيم لا التأثير ، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفي ضعف الابانية في كثير من صفحات الكتاب .

مصادر الكتاب :

وبعد فمن المستبعد أن يظهر كتاب شامل في النحو والصرف ككتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها ، وسار على هداها وهم يقولون لذلك إن سيبويه قد اقتبس عن سبقه ولا سيما عيسى بن عمر الثقفي الذي ألف كتابين في هذه المادة سماهما الإكمال والجامع ، ويروون أن الخليل قال فيهما :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقر
غير أن هذين الكتابين لم يبقيا ، وعفى على آثارهما كتاب سيبويه ، ويظهر لي أنه من الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرة لكل الجهود التي قام بها العلماء والمؤلفون منذ بدأ أبو الأسود هذا النحو ، فجمع سيبويه ما تفرق في كتبهم ، وما استشهدوا به من شعر ، ورتبه ونظمه ، وأضاف إليه ما سمعه بنفسه .

وهكذا يجب أن نفهم ما قاله ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنساناً منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل ، فليس معناه أن واحداً وأربعين إنساناً اشتركوا مع سيبويه في تأليف كتابه ، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه وقد كانوا أكثر ، وبناتج أبحاثهم .

أما هذه الرواية التي نقلها ابن خليكان في ترجمة عيسى بن عمر حين قال :

وأخذ سيبويه عنه النحو ، وله الكتاب الذى سماه الجامع فى النحو ، ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتجشئة نسب إليه وهو كتاب سيبويه المشهور ، قال ابن خلكان : والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ، ولازم الخليل بن أحمد سأل الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : صنف نيفا وسبعين مصنفا فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأنت عندة عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه الاكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع ، وهو هذا الكتاب الذى اشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد : ذهب النحو ... الخ . أما هذه الرواية فنقوضه لا أساس لها من الصحة فيما أرى ، وهى أقرب إلى التأليف منها إلى الحق والصواب فغريب ألا توجد من مؤلفات عيسى سوى نسخة واحدة عند هذا الثرى ، وغريب أيضا أن تأتى الآفة على جميع كتبه غير هذين الكتابين ، هذا إلى أننى أستبعد على الخليل بن أحمد ، ومنزله فى النحو منزله ألا يكون قد اطلع على أهم ما خلفه عيسى بن عمر ، وأستبعد عليه ، وهو الرجل الذى يزن كلامه بميزان الذهب أن يتحدث عن كتابين لم يرهما هذا الحديث الملىء بالكبار والاعجاب ، واستبعد عليه أيضا أن يظل جاهلا أنه تليذه يقرأ عليه كتاب الجامع ليشرحه ويحشوه ، هذا وكتاب سيبويه ليس فيه ما يدل على أن أصله متن وشرح ، وليكنه كتاب وضع وضعا ابتدائيا كذلك . وليس معنى هذا أنه لم ينتفع بكتايب عيسى ، بن عمر ، بل قد انتفع بهما وبغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن كل مؤلف محترم حتى عصرنا الحاضر — يريد أن يضع كتابا قيما ، فن المحتم عليه ان يرجع إلى ماسقه من الكتب يستفيد بنتائجها وتجاربها ، ولا يعد ذلك عيبا فى المؤلف أو نقصا فى كتابه ، بل إنه ليعد ناقصا مقصرا إذا لم يرجع إلى الكتب المؤلفة قبله

استفاد سيويه ومن حقه أن يستفيد من الكتب السابقة ، ونقل أيضاً عن أساتذته الذين تحدثنا عنهم فيما مضى ، وكلهم من البصريين ، ولم يأخذ إلا عن الرؤاسي من الكوفيين ناقلاً عن كتابه الذي سماه الفیصل - كما ذكر ذلك ياقوت - وأكثر من روى عنه الخليل بن أحمد . وإن سيويه ليقف منه في الكتاب موقف التلميذ من أستاذه ، يسأله عن الأحكام والعلل وفروق القياس ، ويثبت إجابة الخليل ، بل لقد نقل إلينا في فصل من فصول الكتاب درساً من دروسه ، فقد عقد باباً بعنوانه : هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد « ص ٦١ » ، قال : قال الخليل يوماً وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والكاف التي في مالك والباء التي في ضرب ؟ ففيل له : نقول باء ، كاف ، فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : كه وبه ، فقلنا : لم ألحقت الهاء فقال - وهنا أوجه النظر إلى مثل من أمثلة القياس الذي كان يستخدمه الخليل - قال : رأيتم قالوا : عه ، فألحقوا هاء حتى صيروها يستطيع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف « فان وصلت قلت ، وب ، فاعلم ياقتي ، كما قالوا : ع ياقتي ، ويمضى سيويه بعد ذلك ناقلاً أسئلة الخليل وأجوبته وأجوبة تلاميذه ونستطيع أن نأخذ من ذلك صورة لسير الدروس في ذلك الحين فقد كانت تسير على طريقة المناقشة لا الالتقاء .

ونقل سيويه كثيراً عن يونس أيضاً حتى لقد ينقل عنه أبواباً برمتها ففي الكتاب فصلان في التصغير نقلهما عنه وقال : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس . كما كان يروي عن أبي الخطاب الأخفش الكبير . ويقول حدثني من أثق بعربيته ، ويريد : أبا زيد ، كما سبق أن ذكرنا ، ويحكى أقوال أبي عمرو بن العلاء ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس ، وكان رائده الحق فلا يتعصب للخليل بل للصواب فنسمعه يقول أحياناً : وقول يونس أقوى ، وأحياناً يروي عن العرب مباشرة ويقول : إنه سمع منهم . وذلك كله يدل على سعة اطلاع سيويه وتضلعه .

شخصية المؤلف :

استفاد سيبويه - ولا ريب - من الكتب المؤلفة قبله ، وأخذ عن أساتذته - كما ذكرنا - فهل أفنى كل ذلك شخصية المؤلف فأصبح جماعا ليس غير ؟

إن كتاب سيبويه لتطل منه شخصيته واضحة قوية فيما يأتي :

أولا : أسلوبه ، فالمعلومات قد يتلقاها المرء من هنا ومن هنا ، ولكن وضع هذه المعلومات في أسلوب خاص وطريقة خاصة من طرق التعبير هو ما يميز شخصا من آخر . يقول Buffon في حديثه عن الأسلوب : إن الموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة ، وتنتقل ، وتكتب أيضاً بأيد أكثر مهارة ؛ إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ، أما الأسلوب فالرجل نفسه . وإذا فشخصية سيبويه واضحة كل الوضوح في أسلوبه الذي صاغ به معلوماته التي أخذها من جميع المصادر المعروفة في ذلك الحين .

ويقول بعض المؤرخين إن الكتاب معقود بلفظ الخليل ، وهو ما لا أوافق عليه ، فالكتاب بين أيدينا معقود بلفظ سيبويه ، وما نقله عن الخليل أو غيره نسبة إليه في صراحة ، وقد تحدثنا عن أسلوب سيبويه فيما مضى .

ثانيا : تبويب الكتاب وتقسيمه وترتيبه ، وذلك من صنع سيبويه ، ولا نستطيع أن نعرف إلى أي مدى استفاد من تبويب الكتب السابقة ، لأنها لم تصل إلينا .

ثالثا : الاستنباط وحسن التعليل والبرهنة والتفريع ، وحظ سيبويه من ذلك حظ غير يسير ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه ، أو تعليل يأتي به ، أو برهان يقدمه ، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة ، مما يدل على عبقرية ممتازة وشخصية قوية لا تسكتفي بالنقل والتقليد .

شخصية سيبويه واضحة إذاً في كتابه كل الوضوح ، فالكتاب كتاب سيبويه ، كتبه بقلبه ، وصاغ أسلوبه بفكره ، واشترك فيما فيه من استنباط

وتعليل وبرهنة وتفريع ، وهل يعظم الخليل سيديوه إلا إذا كان قد رآه
أخذاً طريقته مجيداً للتعليل والقياس والتفريع .
شواهد الكتاب :

للكتاب مصدران من الشواهد هما القرآن الكريم ، وكلام العرب ،
وأشعارهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وفي هذا العصر القديم احتاج العلماء إلى شعر
العرب يستنبطون منه قواعدهم ، ويثبتون به آراءهم ، وكانوا يستشهدون على
ذلك بأشعار الطبقتين من الجاهليين والخصريين ، ثم اختلفوا في الإسلاميين
كجبرير والفرزدق ، والأكثر على جواز الاستشهاد بأشعارهم ، وكان أبو عمرو
ابن العلاء وعبد الله بن أبي إسحق والحسن البصري يلحون الفرزدق والكميت
وذا الرمة ومن على شاكلتهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يجوز الاستشهاد
بكلامهم ، وقد كان بين ابن أبي إسحق وبين الفرزدق خصومة ونزاع ، فقد
سمع الفرزدق يقول :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف
فراى أن مجلف في رفعها لا تناسب مسحتاً في نصبها فاعترض على
الفرزدق ، فجهاه الفرزدق بقوله :

قلو كان عبد الله مولى هجوتة ولكن عبد الله مولى مواليا
فاعترض ابن أبي إسحق على قوله مولى مواليا أيضاً ، وقال : بل هو مولى
موال ، وسمع قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضر بنا بحاصب كنديف القطن مشور
على عمائنا تلقى وأرحلنا على زواحف ترجى ، مخارير^(١)
فقال ابن أبي إسحق إنما هو رير ، وخالفه يونس ، فقال إن ما قاله
الفرزدق جائز حسن ، فلما ألحوا على الفرزدق قال : زواحف ترجيها محاسير .
ولكن الثقات مجمعون على أن الاستشهاد بالشعراء جائز به وبطريقته ،

وبمن جاء بعده من المحدثين الذين ينتسبون في العرب ، ولم يتجاوز الثقات بهم مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية : روى ابن قتيبة عن الأصمعي أنه قال : ساقه الشعراء ابن ميادة (سنة ١٤٩) وابن هرمة ورؤبة (سنة ١٤٥) وحكم الخضرى وجميعهم من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية .

هذا ، وقد كان البصريون يجهلون ... كما ذكرنا - في أن يعرفوا قاتل الشعر ، وخلوص عربيته ، ولا يأخذون شواهدهم إلا من العرب الخالص الذين لم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأعاجم ، وهم يتثبتون قبل أن يستنبطوا أما الكوفيون فليس لهم ما هؤلاء من التدقيق والتحقيق .

وقد بذل سيبويه جهده في تخير شواهد كتابه ، وأخذ هذه الشواهد عن الجاهلية كزهير والنابعة ، والمخضرمين كحسان والحطيئة ، وشعراء الأمويين كجرير والفرزدق والكميت وابن أبي ربيعة ، وابن قيس الرقيات ، وجميل والأخطل ، وأخذ عن الثقات : إن شعرهم آخر شعر يحتاج به وهم ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة بن العجاج ، فكان موقفه من هؤلاء الإسلاميين غير موقف أبي عمرو بن العلاء وصحبه . ولست أدري رأى سيبويه في بيت الفرزدق : مستقبلين شمال الشام . . ولعله يوافق رأى أستاذه يونس ، من جوازه واستحسانه ، ولا رآيه في البيت الأول : وعض زمان ... أما رآيه في البيت الثاني ، فقد ذكره في الجزء الثاني من كتابه (ص ٥٨) وبين أن الخليل قد خرجه على الضرورة الشعرية التي تحفظ ولا يقاس عليها .

أما موقف سيبويه من بشار فلم يستشهد بشعره في كتابه ، وروى أن سيبويه طعن على بشار في قوله .

فالآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوجل على مشير
وفي قوله .

على الغزلى منى السلام فربما طوت بها فى ظل مرءومة زهر

وفي قوله يصف سفيته .

تلاهب نينان البحور ، وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى
وقال لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان ، فبلغ
ذلك بشارا ، فغضب وهجاه .. وكنا يعلم مرارة لسان بشار - بقوله .

أسبويه يابن الفارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ ؟
أظلت تغنى سادرا فى مسامتى وأملك بالمصرين تعطى وتأخذ !
وأى هجاء أبلغ من حذف المفعول فى الفعلين . تعطى وتأخذ ، فيقال
إن سبويه توقاه بعد ذلك ، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ، ووجد له
شاهداً من شعر بشار ، احتج به استكفافا لشربه ، ولعل بشارا أراد أن
يحاسن سبويه بعد أن أصبح يحتج بشعره فقير نينان البحور ، وجعلها
تيار البحور .

هذا ، وأما جمع نون على نينان فقد أثبتته صاحب القاموس واللسان ،
وحكى السيد المرتضى فى شرح القاموس تخطئة سبويه لبشار ، ثم قال .
واستعمله المتنبي ، وغلطوه أيضاً .

ثبتت سبويه فى اختيار شواهد كتابه حتى ليقال . إنها أصح شواهد ،
وقد انتقد بعضهم بعض شواهد ، فالمراد فى كامله يقول . وقد روى سبويه
بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين
المفتشين يجيز مثل هذا فى الضرورة ، والبيت الأول هو .
هم القائلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا يوما من الأمر معظما
والثانى .

ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعا ، وأيدى المختفين رواهقه
والبيتان المذكوران فى الجزء الأول من كتاب سبويه فى باب إعمال اسم
الفاعل ، وقد رجعت إليهما . فوجدت سبويه يقول . واعلم أن حذف
النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ... وقد جاء فى الشعر

فزعوا أنه مصنوع ، ثم أورد البيتين المذكورين ، فسبويه يخبر كذلك أنهما مصنوعان فلا وجه لاعتراض المبرد عليه .

وروى أيضاً أن سبويه سأل اللاحقي . هل تحفظ للعرب شاهداً على إعمال فعل ؟ قال اللاحقي . فوضعت له هذا البيت ..

حذر أموراً لا تضر ، وآمن ما ليس منجيه من الأعداء
وقد رجعت إلى كتاب سبويه ، فلم أجد هذه القصة ، ولكنه أورد البيت شاهداً على إعمال فعل . وقد علق الأعلام الشنمري بعد أن ذكر قول من زعم صناعة هذا البيت بقوله : وإن كان هذا صحيحاً فلا يضر ذلك سبويه لأن القياس بعضده ، وقد ألفت في بعض ما رأيت لزيد الخيل بن مهمل الطائي بيتاً في تعدى فعل وهو قوله :

أتاني أنهم مزقون عرضي جحاش السكرملين لها فديد

فقال : مزقون عرضي كما ترى ، وأجراه مجرى مزقين ، وهذا لا يحتمل غير هذا التأويل فقد ثبت صحة القياس بهذا الشاهد القاطع .

وأقول بدوري : إن ذلك لن يكون مطعناً في شواهد سبويه التي يبلغ عددها ألفاً وخمسين بيتاً ، يحدث التاريخي عن المبرد عن المازني عن الجريري قال : في كتاب سبويه ألف وخمسون بيتاً سألت عنها فعرف ألف ولم تعرف خمسون أي من قائلها ، وذكر الأستاذ الرافعي في هامش كتابه أن المرحوم الشنقيطي ذكر في حواشيه المطبوعة أنه علم واحداً من هذه الخمسين وهو قول القائل : أبعد كندة مدح قبيلا ، فقال إنه لا مراء القيس . ولكني رجعت إلى كتاب سبويه فوجدت هذا الشطر بالجزء الثاني (ص ١٤١) في باب نون التوكيد منسوباً إلى شاعر يسمى (مقنعا) ، ولعل الأستاذ الشنقيطي نسبته إلى امرئ القيس لما فيه من مدح كندة قبيلة الشاعر ، وذكر الأستاذ الرافعي رأيه فقال : والصحيح أن تلك الآيات التي منها هذا الشطر - وضوعة على امرئ القيس لنزولها عن طبقته ، وظهور الصنعة والتوليد فيها .

هذا وقد كان استشهاد سيويه في كتابه بآيات من القرآن الكريم مدعاة إلى تخرج بعض العلماء أن يدرس الكتاب لغير المسلمين، قال صاحب كتاب الوافي بالوفيات : وكان المازني في غاية الورع ، قصده بعض أهل الذمة ليقرا عليه كتاب سيويه ، وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه فامتنع ، فقال له المبرد : جعلت فداك ! أترد هذه المنفعة ، مع فافتك وشدة إضاقتك ؟ ا فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وغيره على كتاب الله وحمة له .

الكتاب ودراسة النحو .

أصبح كتاب سيويه بعد أن ظهر للناس برنامجاً لمن أراد الدراسة العليا في النحو ، وأصبح الطالب لا يعد مستكملاً هذا النوع من الدراسة إلا إذا قرأ كتاب سيويه ، وصار اسم الكتاب يطلق عليه ، ويقتخر الطلبة بأنهم قرووه ، ومن باهى بذلك أبو نواس وغيره من شعراء العصر ، وقد ذكرت فيما مضى مغالاة الناس بهذا الكتاب ، وحرصهم على دراسته سواء أكانوا من محبي سيويه أم من خصومه ، ومن هؤلاء الأعلام الذين درسوا كتاب سيويه في تلك العصور الأولى غير من ذكرناه فيما سبق - الجرمي والزيادي والسجستاني وأبو العباس المبرد وغيرهم ، ولم يكن يحسب العالم عالماً في النحو إلا إذا درس كتاب سيويه كله ، قال أبو علي الفارسي ، جئت لأسمع من ابن السراج كتاب سيويه وحملت إليه ما حملت ، فلما انتصف الكتاب عسر على إتمامه ، فانقطعت عنه لتمكني من مسأله ، فقلت في نفسي بعد مدة : إذا عدت إلى فارس ، وسئلت عن إتمامه فإن قلت نعم ، كذبت ؛ وإن قلت لا ، بطلت الراوية .

العناية بالكتاب .

وكان كتاب سيويه منذ تأليفه موضعاً لمراجعة العلماء ، منهم من يشرحه ومنهم من ينظم ترتيب أبوابه ، ومن هؤلاء ابن السراج الذي ألف كتاب

الأصول ، وقد جمع فيه أصول علم العربية ، وأخذ مسائل سيبويه وزايتها أحسن ترتيب كما أنه شرح كتاب سيبويه .

ومن شرح كتاب سيبويه أيضا سعيد بن المرزبان ، والأخفش الصغير وأبو سعيد البيراني كما قام بشرح شواهد يوسف بن سليمان الشنتمري .

ولم يقف كتاب سيبويه عند حدود المشرق بل جاز البحر إلى بلاد الأندلس ، وقد عقد الأستاذ الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب فصلا تحدث فيه عن كتاب سيبويه في الأندلس : فذكر أن أقدم ما وقف عليه من حفظ كتاب سيبويه هناك هو حمدون النحوي ، المتوفى بعد المائتين ، ثم ذكر من شهر بحفظ الكتاب وتدرسه وشرحه والتعليق عليه ، بما يدل على ما لاقاه هذا الكتاب في الأندلس من الاجلال وحسن التقدير تقديراً لا يقل عن تقدير أهل المشرق له إن لم يزد حتى كانوا يتنافسون في حفظه عن ظهر قلب ، وقد قام بعضهم باختصاره للطلبة المبتدئين ، ومن أشهرهم أبو حيان في القرن الثامن .

ما أخذه العلماء على سيبويه .

قال ثعلب : « يقول سيبويه في كتابه في غير نسخة : حاشا حرف يخفض ما بعده ، كما تخفض حتى ، وفيها معنى الاستثناء » ، وقد رد عليه الزجاج بأن ذلك في كتابه ، وهو صحيح ذهب في التذكير إلى الحرف وفي التأنيت إلى الكلمة . قال ثعلب : والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد فرد عليه الزجاج بأن كلا جيد ، قال الله تعالى : ومن يقنت فمنكن لله ورسوله ويعمل صالحاً ، وقرىء وتعمل صالحاً . وقال عز وجل ، ومنهم من يستمعون إليك ، ذهب إلى المعنى ، ثم قال : « ومنهم من ينظر إليك » ، ذهب إلى اللفظ وليس لقائل أن يقول : لو حمل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود ، لأن كلا جيد .

أما الفراء فكان يقول : إن سيبويه لا يلزم حجب التعجب ، والتقدير جئت

إلى الكتاب فلم أجد سيويه قد استوفى حقاً أبواب التعجب وفروعه المختلفة وأما المبرد فيقول الأستاذ الرافعي : إنه أفرد كتاباً في القدرح في كتاب سيويه والغرض منه ، ولم أطلع على هذا الكتاب الذي وضعه المبرد ، ولم أعرف النقطة التي خالفه فيها ولا يكن ياقوت في معجمه ذكر أن عبيد الله النصري ألف كتاباً سماه الانتصار لسيويه على أبي العباس في كتاب الغلط . وذكر الأستاذ جورجى زيدان أن أبا بكر الزيدى ألف كتاباً سماه كتاب الاستدراك على كتاب سيويه انتقد فيه مواد هامة ، وطبع في روما سنة ١٨٩٠ بغاية الأستاذ جويدي المستشرق الايطالى .

رأينا في الكتاب .

- ١ - الكتاب في نظرنا مرجع من المراجع نعود إليه عندما نؤلف كتاباً في القواعد العربية .
- ٢ - وهو صورة لأخر ما وصل إليه التقدم العلمى في النحو في أواخر القرن الثانى الهجرى ، لأن الكتاب كما قلنا - ثمره لهذه الجهود المتصلة في تلك المادة منذ بدأها أبو الأسود .
- ٣ - وهو صورة أيضاً لما كانت عليه دراسة النحو في ذلك الحين من التعليل والقياس والاستنباط والتفريع واستيعاب الفروض .
- ٤ - وفي رأي كذلك أن كتاب سيويه كان الكتاب الأول والآخر في النحو ، فالكتاب سجل لقواعد النحو ، وقف العلماء عندها ، ولم يزدوا عليها ، وكل من جاء بعده جعل الكتاب أساس دراسته ووقف عند حد الشرح أو الاختصار ، ولم يزد المتأخرون على كتاب سيويه إلا أن وضعوا الاصطلاحات التي كانت تنقصه . كما ذكرنا - وإلا أن رتبوا أبواب القواعد ترتيباً جديداً ، فالطبقة التي نلت كتاب سيويه كانت طبقة الشرح والتكميل والتنظيم ، ثم جاءت من بعدهم طبقة أخرى ، اكتفت بذكر القواعد من غير أن تقرنها بعلمها وأسبابها وظل الأمر يتدرج حتى انتهى بهذه المختصرات

أو المتون التي احتاجت إلى شروح مطولة ، ثم احتاجت الشروح إلى حواش وتقارير وجدت مصدرها في كتاب سبيويه .

٥ - نقرأ كتاب سبيويه على أنه مرجع ومصدر ، أما أن نجعله أساس الدراسة مثلاً في عصرنا الحديث فلا ، لأننا بذلك نلقى تطور التأليف النحوي وما ناله هذا التأليف من التنظيم والتبويب منذ عصر سبيويه إلى وقتنا الحاضر .

ويا حبذا لو تضافرت الجهود ، واجتمعت القوى على إخراج كتاب فيه القواعد النحوية المبعثرة بمجموعة منظمة ، واستخرجنا من كتب السالفين ما فيها من جواهر مستورة ، ووضعنا ذلك كله في أسلوب جميل تزينه شواهد ممتازة ، ليكون عدة العالم في عصرنا الحديث . إن كتاباً كهذا يكون له من الأثر ما كان لكتاب سبيويه طوال هذه القرون المتعاقبة والله يهدي إلى سواء السبيل .

مراجع البحث

- ١ - كتاب سيويه
- ٢ - أخبار النحويين البصريين للسيرافي .
- ٣ - الفهرست لابن النديم .
- ٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
- ٥ - نزهة الألباء لابن الانباري .
- ٦ - معجم الأدباء لياقوت .
- ٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان .
- ٨ - بغية الوعاة للسيوطي .
- ٩ - كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .
- ١١ - تاريخ آداب العرب للرافعي .
- ١٢ - تاريخ اللغة والآداب في العصر العباسي للسكندري .
- ١٣ - ضحى الإسلام لأحمد أمين .
- ١٤ - الأعلام لخير الدين الزركلي .
- ١٥ - إعجام الأعلام لمحمد مصطفى .
- ١٦ - كشف الظنون لحاج خليفة .
- ١٧ - La Littérature Arabe. Par Huart.
- ١٨ - Anthologie Gramaticale Arabe, Par S. De Sacy
- ١٩ - كتاب الاقتراح للسيوطي .